Elisa Mattar
1ere E1
Grand Lycée Franco-Libanais de Beyrouth

إليزا مطر
الليسه الفرنسية اللبنانية الكبرى- بيروت

أيام الحزن

إهداء

إلى أبي،

الرجل الذي حماني من الوحوش الصغيرة التي كانت تختبئ تحت سريري في صغري،

ويحميني من وحوش الحياة الكبيرة حتى اليوم.

إلتفت إلى الوراء ليأخذ لمحة أخيرة عن عائلته التي يتركها في هذه القرية الصغيرة، متوجهاً نحو المدينة ليجد طريقة ليعيل أمه وأخويه الإثنين الأصغر منه بعد وفاة أبيه. إلتفت وندم على هذه اللحظة لبقية حياته. فرأى دموع أمه تنهمر من العيون التي سهرت الليالي لكي تربيه، رآها تمسك أخاه جهاد لكي تمنعه من اللّحاق به، ورأى إبتسامة بريئة على ثغر أخيه الثاني بشير، إبتسامة من تلك الإبتسامات التي تخبئ كل حزن العالم وراء بريقها الصغير الذي اخترقه ليكسر كل ما زال متماسكاً في داخله ويمنعه من الرجوع إلى بيته المتواضع، حيث الفراغات بين الحجر القديم تخبئ ذكريات الطفولة. ما إن خطا أول خطوة للرجوع ، حتى تملكته الرغبة بأن يحصل أخواه الصغيران على علم ومستقبل أفضل من مستقبله الذي يذهب ضحية الفقر و الحاجة. فعاد أدراجه وركب في السيارة التي انطلقت نحو الساحل اللبناني، حاملاً معه حقيبة صغيرة مليئة بالثياب وآمال بالحياة الميسورة.

وفيما كانت تتقدم السيارة، كان عمر، ذلك الشاب ذي السادسة عشر عاماً الذي لم يخرج من قريته قط، يتأمل خضار الأشجار وزرقة السماء يتلاشيان ليتركا مكانهما اللون الرمادي الذي يلون الأفق. فكانت المباني من كونكريت، مصممة بنفس الشكل،و ملونة بنفس اللون الداكن الذي يتعب العين و يحزن القلب. وكانت غيمة سوداء من دخان السيارات والمعامل تخبئ العصافير القليلة التي لم تهرب من هذا الجو الكئيب. بعد ساعات طويلة ومملة قضاها الشاب يستمع إلى شريط أم كلثوم الذي وضعه السائق، أوقف هذا الأخير السيارة أمام مبنى في بيروت حيث يسكن صديق أب عمر القديم، وحيث سيقيم هو حتى يجد عملاً ليتمكن من دفع أجار شقة .

ما إن قرع الجرس، حتى استقبله رجل في العقد الرابع من عمره. دخل ليجد شقة صغيرة: إلى يساره غرفة نوم حيث لمح سريراً صغيراً وفراشاً آخر على الأرض، إستنتج أنه سيكون الفراش الذي سيحتضنه كل مساء وسيأخذ كل الهموم عن عاتقه، كما كانت تفعل أمه عندما كانت تجلس على حافة سريره وتمرر أصابعها بين خصل شعره. إلى يمينه مطبخ صغير، وغرفة جلوس سيطر عليها اللونين الأسود والأبيض، مع طاولة صغيرة في الوسط وفرش متواضع. وضع الحقيبة من يده، جلس وبدأ يتكلم مع الرجل، فؤاد، كأنه عرفه طيلة حياته. أخبره عن أحواله، وعن أحوال أمه وأخويه جهاد وبشير، وكيف لم يتبقى لهم إلا الله و الآمال التي وضعوها في هذه الرحلة. فقال فؤاد: "ليس للنحلة

العاملة وقت تشعر فيه بالحزن. هيا بنا لنجد لك عملاً يلائم عمرك. أعرف شخصاً عرض علي عملاً لك."

مشى عمر في الشارع و كاد يضيع عدة مرات. فكانت عيناه تتنقلان من شخص إلى آخر وكأن الناس كائنات فضائية. فكان يرى أشخاصاً تمشي و رأسها منحنٍ أمام عملاق التعب والوحدة الذي يحتل المدينة، وكان يدير رأسه مفتشاً على إبتسامة أو بصيص صغير من الفرح في عيون أحد من هؤلاء الكائنات المبرمجة، لكن لا نفع. وصل فؤاد وعمر إلى ورشة بناء. كان صوت المعدات والآلات عالٍ لدرجة أن عمر لم يسمع ما قاله له فؤاد ولكنه فهم عندما أشار بأصبعه إلى رجل بان له أنه المسؤول عن هذه الورشة. أومأ أحد العمال للمسؤول باتجاههما، فإقترب منهما وقال: "أهلاً وسهلاً فؤاد! كيف حالك؟ أظن أن هذا الشاب هو عمر. أنا المعلم سعيد." مد يده ليسلم على الشاب الذي رد عليه السلام رغم يدا المعلم سعيد السوداوين من الغبار والباطون. أكمل: "لقد قال لي فؤاد أنك بحاجة إلى عمل، وأنا بحاجة إلى عامل لنقل أكياس التراب من الشاحنة إلى الورشة. فهل تريد أن تستلم هذه المهمة؟ ولكن إنتبه! فأنت ستعمل طوال النهار قرب معدات حادة وقاطعة. فإذا كنت متهور،عليك ألا تقبل بعمل في هذا المكان الخطر." "لا تقلق، أجاب عمر، سأكون الشاب المثالي لهذا العمل."

وهكذا بدأ عمر العمل في ورشة العمار. وكان عملاً متعباً: فكان طوال النهار ينقل حملاً أثقل منه بثلاث مرات، تحت أشعة الشمس الحارقة. وكانت قطرات العرق تنزل كالثعابين على جبينه، ولكنه كان يمسحها بإبتسامة لأن كل قطرة منها كانت تعلم أخويه بشير وجهاد لشهر آخر. كان هذا الشاب الصغير يعود كل مساء إلى الشقة، و قد أحنى الزمن كتفيه العريضين بمتاعبه رغم صغر عمره، يستحم، و يأكل مع فؤاد عشاءه الذي لم يشبعه يوماً لأنه يفضل أن يرسل القسم الأكبر من المال الذي يحصل عليه من الورشة إلى عائلته. ثم يستلقي على فراشه متذكراً الأيام التي قضاها يلعب مع أخويه في الحقول والبساتين، وكيف كانت أمه تناديهم لكي يأخذ كل واحد منهم حصته للغداء، حتى تمتزج أفكاره بأبخرة الأحلام ويستيقظ في الصباح التالي...

في نهارٍ كانت قد بدأت السماء تبكي فيه على أطلال الساهرين الذين، مع بدء شهر أيلول، توجهوا إلى أعمالهم، كان عمر، كعادته، يحمل أكياس التربة وينقلها من مكان إلى آخر. وكان لم يتغير كثيراً منذ أول يوم جاء فيه إلى هذه الورشة. بل كانت أصوات الآلات تتعالى، كأنها تصرخ الواحدة على الأخرى، وكان المعلم سعيد يأتي بمعدات جديدة إلزامية لإنهاء هذا المبنى. ما إن أنهى الشاب تحميل آخر كيس من التربة، حتى سمع صوت شاحنة تدخل الورشة. فجمع ما تبقى له من قوة، مفكراً بأخويه الذين يجلسان على كرسي في الّصف، وذهب لإحضار البضاعة. كانت الأكياس أثقل من غيرها، ولم يكن هنالك أحد لمساعدته. فحمل أول كيس على ظهره، متمسكاً به لكي لا يقع، وبادر بالنقل. بعد ساعة من هذا العمل الشاق الذي إستنفذ قواه، كان ظهر عمر منحنياً لدرجة أنه كان بالكاد يرى أمامه. وفيما كان يمشي، مع كيس تربة على ظهره وأصوات العمال في أذنيه طالبين منه أن يسرع، تعثر الشاب على خشبة موضوعة على الأرض، فطار الكيس عن ظهره، وراح عمر يسقط على آلة حادة تعمل. وآخر شيء يتذكره هو صرخات العمال و صوت دعسات الأقدام التي كانت تقترب منه شيئاً فشيئاً. عندما فتح عمر عيونه، وجد نفسه في مكان غريب جداً. لم يكن يعرف ما كان هذا المكان، فكانت تحيطه الظلمة وكان يشعر بالبرد كما وكأن الموت يمد يده لكي يأخذه. ولكن فجأة، من وراء الظلمات، ظهر نور صغير أخذ يكبر ويكبر حتى بدأ يبعث بالدفء في قلب عمر، وجعله ينجذب إليه بلا وعي. لم يشعر عمر بالفرح والإشتياق في كل حياته كما شعرهما عندما رأى أباه يخرج من هذا النور. "أبي! يا أبي! كم اشتقت لك يا أبي!"- "كم أنا فخور بك يا بني! أنت تتصرف كرجل حقيقي، تضحي من أجل عائلتك وتتخلى عن كل شيء من أجلها. ولكن لماذا أنت هنا؟ عليك أن تعود إلى حياتك."- "لكن لا أريد ذلك يا أبي! أريد أن أبقى معك هنا. اشتقت لك كثيراً! لا تعرف كم من الليالي قضيتها أبكي غيابك، أبكي الأشياء التي كان يمكننا أن نفعلها سوياً، أبكي حب الأب الذي لم يشعر جهاد وبشير بدفئه."- "أنا لم اذهب يا عمر، فأنا في قلبك وأراقبك أنت واخواك طوال الوقت. ولكن الآن يجب أن تعود اليهما، فهما بحاجة لك. أنت الآن الأخ والأب في آنٍ واحد. عد وقل لأمك أني أحبها كثيراً وأنها ستبقى الشعلة التي نورت طريقي وأدفأت حياتي؛ وقل لأخويك أن يكبرا بالإيمان والتفاؤل. أما أنت يا عمر، فتذكرني بنفسي. عد ولا تخف. فأنا معك في كل خطوة."

فتح عمر عينيه المغرورقتين بالدموع ليجد نفسه في غرفة في المستشفى. تلفّت حوله، لكنه لم يرى أحداً، لكن سمع صوت فؤاد يتكلم مع أحد : "يا دكتور، ماذا نفعل الآن؟". فأجاب هذا الأخير "سيكون الأفضل له أن يعود إلى القرية، فحالته تستلزم العناية الدائمة، إن كانت جسدية أو معنوية." لم يفهم عمّا كان يتكلم الطبيب، فنظر إلى جسده ليرى ماذا حصل له. وما رآه غيّر حياته إلى الابد: كانت يده مقطوعة. وفقد الوعي، لا يعرف إن كان من الحزن أو من الألم الذي بدأ يتآكله بعد زوال مفعول المخدر. عندما إستيقظ عمر للمرة الثانية، وجد نفسه في سيارة إسعاف، وكان ممرض شاب يجلس قربه. فسأله: "إلى أين نذهب؟"- "نعود بك إلى قريتك." تملك عمر شعور لا يوصف، وبدأت الأفكار السوداء توجعه أكثر من يده المبتورة. رأى مدير مدرسة بشير وجهاد يخرجهما من الصف لأن القسط المدرسي لم يدفع، رأى أمه تنظف منازل أهل القرية لكي تحصل على أجر زهيد لا يكفيهم لأسبوع واحد. وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً لأنه أصبح معوّقا. رغم أن نوافذ سيارة الإسعاف كانت عالية تمنعه من رؤية الخارج، كانت روائح الخضار والحياة الريفية المتجددة تغزل في أنفه لتنسيه كل مشاكله. ولكن هزّة السيارة عند توقفها ردّته إلى الواقع الكئيب. "كيف سأواجه أمي؟ كيف سأنظر في عيون أخواي وأقول لهما انهما سيضطران إلى ترك المدرسة؟" .

فتحت أبواب سيارة الإسعاف و ساعد الممرض عمر لكي يترجل منها. وقف أمام بيته، يتأمله. كان ما زال نفسه، لم يتغير: الأحجار القديمة، الزهور الصغيرة التي نمت بينها..لكن طبعاً، كان كل شيء قد تغيّر بالنسبة له. بالطبع، كان فرحا لعودته إلى قريته وبيته، غير أن لم تكتمل هذه الفرحة إلا عندما رأى أمه و أخويه يخرجون من المنزل لكي يستقبلونه. حاول أن يكتم دموعه التي افترست صدره عندما رأى نظرة أمه له، فتمنى لو أن عمره خانه ولم ير هذه النظرة. غمر عمر أخويه محاولاً أن يشعرهما بحب الأخ والأب كما أوصاه أبوه. ثم بعد القبلات والدموع، جلس الشاب مع أمه وأخبرها عن المدينة، عن فؤاد، عن الورشة، عن الحادث، وعن أبيه... ثم أخبرها عن مخاوفه من الفقر الشديد ومن خيبة أمل أخويه بعد تركهما المدرسة. فارتسمت إبتسامة على ثغر الأم التي قالت: "هل تذكر عمك أيمن الذي يعيش في أستراليا؟ عند رحيلك، ارسلت له رسالة كتبها لي إبن المختار، أنبأه بوفاة أخيه. وسرعان ما وصلته الرسالة، حتى ركب على متن أول سفينة قادمة إلى لبنان، وإشترى بيت المرحومة أم جورج. وهو الأن سيهتم بمصاريفنا. ها هو قادم!!". إستدار عمر ليرى رجلا قد ظن في

بادئ الأمر أنه أبوه، ولكن لاحظ الشاب الخصل البيضاء التي تمتزج مع شعره لكي تجعله كسماء الليل المرقطة بالنجوم. وبدون كلام أو حركة، نظر عمر مطولاً في عيون عمه، عارفاً أن أيام الحزن قد ولت.